مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 04 (2020) - ص 299 -309

القدس وتقاطعات السّرد والتّاريخ- قراءة في بعض النّصوص السّردية-

Jerusalem and the intersections of narration and history historical Reading in some narrative texts

زياني محمّد[1] محمّد مليايي[2]
mr.yasserziani_1983@yahoo.com[1] [2] meliani_med2006@yahoo.fr
جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/07/08 تاريخ القبول: 2020/11/02 تاريخ النشر: 2020/12/10

ملخص البحث

يُشكّل تاريخ القدس سندا مهمّا للرّوائي في تسجيل ما ميّز هذه المدينة المقدّسة من أحداث، وما أصابها من خطوب، فلقد باتت الأعمال الرّواية تؤرّخ لها، وتتوسّل بالمشاهد السّابقة لإكمال البناء الرّوائي وفق رؤية فنيّة، وهذا ما عالجه هذا البحث، حيث يهدف إلى الوقوف على قدرة النّصوص السّردية على استنطاق تاريخ القدس، وتمثّل تلك التغيّرات السياسية والثّقافية الّتي واجهتها.

وخلصت هذه الدّراسة إلى الإشادة بالمقدرة الفائقة الّتي أبان عنها الرّوائيون في تمثّل الأحداث التّاريخية في نصوصهم السّردية، انطلاقا من أهمّ المحطات المصيرية الّتي عرفتها مدينة السّلام كفتح القدس، والنّكبة، ونكسة حزيران، والانتفاضة الأولى.

الكلمات المفتاحية: القدس- السّرد- التّاريخ- قراءة- النّص.

ABSTRACT:

This research aims at examining the narrative texts 'ability to explore the history of Jerusalem, and these political and cultural changes that they faced, as this study concluded to praise the superior ability expressed by novelists Farah Anton, Wasien Al-Aaraj, Sahar Khalifa and Khalil Al-Sawahri in the representation of historical events in their texts The narrative, based on the most important milestones in the city of peace, such as the conquest of Jerusalem, the Nakba, the June setback, and the first intifada.

Keywords: Jerusalem - narration - history - reading - text

[1] المؤلف المرسل : زيّاني محمّد.

1. مقدّمة:

القدس عاصمة السّلام، ومهبط الأنبياء، ذلك الحلم المفقود الّذي صعب استعادته، والفردوس المغتصب الّذي عزّ فراقه، وهو الفضاء الواسع الّذي استدعى بقداسته وتاريخه المجيد ألوانا من التّكريم والتّمجيد، عبر العصور الإسلامية المتتابعة، فقد استأثرت القدس باهتمام المسلمين منذ الفتح الإسلامي بالنّظر إلى مكانتها السامية الّتي أشار إليها القرآن الكريم في أكثر من آية، وأكدّتها السّنة النبويّة في عدد غير قليل من الأحاديث الشّريفة، والأقوال المأثورة، وكان من هذا الاحتفاء أن كانت موضوعا للمفكّرين والفلاسفة والعلماء والفقهاء، والفنانين، وحتى الأدباء، حيث شكّلت وما تزال مصدر المخيال في البناء الفني عندهم، سواء في أغراضهم الشّعريّة، أو أجناسهم النّثرية، والمنهل الّذي ينطلقون منه في بثّ مشاعرهم الدينية والقومية، وتحويل الصّراعات السّياسية والعسكرية حول المدينة المقدّسة إلى ساحات الأدب والإبداع.

ولقد لعب السّرد دورا بارزا في تصوير مدينة القدس، وتمثّل المراحل الّتي قطعتها المدينة تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، وتعقّب المستجدّات السياسية الخطيرة في الآونة الأخيرة، ممّا أهّل هذا الجنس الأدبي الحديث أن يكون له الحظوة والشّرف في التّعامل مع قضيّة الأمة، تعاملا لا يحصر نفسه فقط مع القيم الفنيّة والإبداعية، بل يجد نفسه في الصّفوف الأمامية مُدافعا عن نخوة مدينة السّلام، ومُصوّرا وضعية المقدسيين، وهم يئنّون تحت نير الاحتلال الصهيوني الغاشم، وهو ما سيعكف على دراسته هذا البحث الموسوم بـ القدس وتقاطعات السّرد والتّاريخ- قراءة في بعض النّصوص السّردية- من خلال الإجابة عن الإشكاليتين الآتيتين: مامدى حضور القدس في العمل الإبداعي السّردي؟، وهل ساهم هذا الحضور في المساهمة في التّأريخ لهذه المدينة المقدّسة، وتسجيل واقعها الأليم بصدق؟

ويعكف هذا البحث على استقراء تلك الصور المتعدّدة للقدس، والّتي حفلت بها قصص ورّوايات المبدعين العرب، ومن الأمثلة على ذلك رواية "أورشليم الجديدة" لفرح أنطون، ورواية "صورة وأيقونة وعهد قديم" لسحر خليفة، وقصة "مقهى الباشورة" لخليل السواحري، ورواية "سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج.

2. أهداف البحث وأهميّته:

يكتسي هذا البحث أهميّة بالغة، حيث يسعى إلى استقراء تاريخ القدس في النّصوص الّتي حتى وإن تعاملت مع هذا الفضاء بقيم فنيّة، فإنّها رامت تسجيل الأحداث بكلّ صدق وموضوعية، كما حاول معرفة مدى خدمة السّرد بأشكاله المختلفة للرّؤية التّاريخية، والوقوف على قدرة النّصوص السّردية على تمثّل تلك التغيّرات السياسية والثّقافية الّتي واجهتها القدس.

3 . منهج البحث:

ويقتضي طبيعة الموضوع مقاربة وصفيّة تحليلية استقرائية تسجّل حضور تاريخ القدس في السّرد العربي، وترصد في الوقت نفسه أشكال هذا الحضور.

1- القدس وتقاطعات السّرد والتّاريخ:

شكّلت القدس بوصفها فضاء روائيا الإسمنت الّذي يُركّب البناء السّردي في الرواية العربية، ذلك أنّ قدسية المكان أعطت للعمل الإبداعي رونقا خاصا، وأثرا بالغا في المتلقي، فليس هو بالمكان المتخيّل كما هو الحال في أغبية النّصوص السّردية، بل هو مكان تاريخي حقيقي، يتشابك برموزه المتعدّدة، ودلالاته المختلفة مع آفاقه الرّحبة، وجغرافيته المتميّزة، وأرضه الطيّبة المباركة، ومن هنا كان احتفاء المبدعين به مميّزا كونه رمزا دينيا كونيا، وامتدادا للحضارة العربيّة الإسلامية، وقضيّة أبديّة يُدافع عنها كلّ إنسان حرّ في العالم.

ولقد كان تاريخ القدس من الرّوافد السّردية الّتي نهل منها النصّ الرّوائي مادته، وجعل الرّواية تحمل بدورها القضيّة الفلسطينية بكافة تشعّباتها، وتصوّر بأمانة تقلّبات المجتمع المقدسي وهو يُواجه النكبات والمصائب، وهذا ما يؤكّد أنّ هاجس التّاريخ قد استبدّ بالرّواية العربيّة منذ طورها الأوّل، وتمكّن منها، و"لعلّ هذا التّواشج بين التّاريخي والرّوائي أن يجاوز الرّواية العربيّة ليكون سمة ملازمة للخطاب الرّوائي بإجمال، ولا غرابة أن نجدا عددا من الدّارسين يعدّون الرّواية سليلة التّاريخ ووريثته[1]، فإذا كانت مهمّة الرّوائي أن يستأنس بالتّاريخ دوما من أجل خلق مرجعيات للأحداث الّتي يصنعها شخوصه، فإنّ تاريخ القدس المثقل بالمصائب والآلام شكّل حافزا للرّوائيين في تقديم نصوص إبداعية تستوعب محطات التّاريخ، وتستأنس بالتّخييل بوصفه جانبا مهما في العمليّة الفنيّة.

صارت مدينة القدس مادة حكائية ومسرحا للأحداث في العديد من الرّوايات، حيث رصد الباحث نزيه أبو نضال حضورها في اثنتين وثلاثين (32) رواية فلسطينية وعربيّة، وقد تبدى البعد التّاريخي بارزا في عمق المكان ودلالاته، ففي المكان القدسيّ نرى المشهد البصريّ شديد الالتباس، فهو حاضر أو مغيّب أو مُشوّه، ولكنّه بما يجسّم في زمن السّرد شهادة لا غنى عنها لتاريخيّة ذلك المكان وللقضيّة الّتي يحملها في مواجهة الاحتلالات[2]، وهو ما يجعلنا نقف عند المسارات الهامة، والمراحل الكبرى الّتي ميّزت هذه المدينة، وهي محطات سنقف عندها انطلاقا ممّا جاد به السّرد من وقائع تاريخية، تتقاطع مع ما يستوجبه هذا الفنّ من مقتضيات تخييلية لا تبتعد عن الواقع بقدر ما تضيف إليه زخما من جوانب قدسيّة المكان.

لقد اعتنت النّصوص السّردية العربية الحديثة بالأحداث التّاريخية الّتي ميّزت مدينة القدس، حيث حاول الكثير من الرّوائيين توظيف جملة من المشاهد والوقائع في أعمالهم، لما شكّلته من تأثير عميق على الشّخوص الّتي تحرّك الأحداث وفقا للجوّ الأليم السّائد، ومن هنا فإنّ الثّراء الّذي وسم خيال المبدع لم يصل إلى ما وصل إليه لولا قداسة الفضاء، ودلالاته المتعدّدة، وبعده الملهم، فالنّص السّردي كان ولا يزال الوثيقة الّتي سجّلت بصدق تاريخ مدينة السّلام، ووقفت عند المحطّات المؤثّرة في العالم بأسره، فأحداث من قبيل فتح القدس، والنكبة، والانتفاضة الأولى، جديرة بالوقوف عندها لاستلهام الدّروس والعبر، واستشراف ما يجدّ في المستقبل، وهو ما سنتناوله في الأعمال السّردية الّتي شكّلت عناوين لمحطات تاريخية عاشها القدس الشّريف.

2- رواية أورشليم الجديدة والتّأريخ لفتح القدس:

تعدّ رواية "أورشليم الجديدة" الّتي ألّفها فرح أنطون سنة 1904م من الرّوايات الأولى الّتي تناولت الحديث عن القدس في بعدها التّاريخي، خاصة ما يتعلّق منها بفترتها الزّاهية المتمثّلة في فتح المسلمين للقدس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث اشتبكت في هذه الرّواية المطارحات الدينية والفلسفية مع قصّة حب جمعت بين اليهودية "إيستر"، والمسيحي "إيليا"، وقد كان حرص الرّوائي على الجانب التّاريخي للمدينة بارزا، ذلك أنّه حاول الاعتماد على العديد من المصادر والمراجع التّاريخية لعلّ أهمّها: "تاريخ فتوح الشّام" المنسوب للواقدي، و"روح الشّعوب" لمنتسكيو[3]، إلا أنّها عرضت القدس كمدينة لها اعتبار في قلوب المتدينين، حيث سعى المسلمون لفتحها وضمّها قبل غيرها من المدن الّتي فتحوها ومروا بها مرورا، حيث أقاموا فيها ورعوها، لاسيما أنّها مسرى النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، فكان أن سعى إليها الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، ودخلها فاتحا، كما أنّها تمثّل ربطا مكانيا بين ديانتين (الإسلامية والمسيحية)[4].

حاول فرح أنطون أن يصوّر مدينة القدس وهي تقطع مراحلها التّاريخية نحو فتح المسلمين بتخصيص أربعة وعشرين فصلا من روايته لبيان أهميّة هذه المدينة الملهمة للأحداث الّتي صنعها أبطال هذه الرّواية على اختلاف عقائدهم وتوجّهاتهم، والمؤسّسة لجملة من القيم الرّاسخة الّتي تميّز بها ساكنوها رغم عمق الصّراع الموجود بين المسلمين من جهة، واليهود والمسيحيون من جهة أخرى، كما أبانت هذه الرّواية عن زخم الأحداث الّذي تميّزت به عاصمة السّلام قبل الفتح، والّتي استمدّت معطياتها من التّاريخ بوصفها المادة الأوليّة الّتي دار حولها هذا العمل الفني.

إنّ التّأريخ لفتح القدس من قبل المسلمين لا يمكنه أن يتأتى في أيّ عمل روائي إلاّ بالجنوح إلى ذكر الظّروف الّتي ساهمت في هذا النّصر، وقبل ذلك الإشادة بقدسية المكان بأحسن ما تكون الإشادة، وهو ما جاء به السّارد في مدخل روايته قائلا: "على جبل الزّيتون فوق بيت المقدس كان في سنة 663 قبل الميلاد بثلاثة أيام طيف يتمشى متأمّلا هذه المدينة تحته وهو يقول كأنّه يخطب في

الدّنيا كلّها: منذ نحو ألفي سنة رنّ في فضاء هذه الأرض التّعيسة صوت خارج من جهات مجهولة يقول: المجد لله في العلى، وعلى الأرض السّلام، وفي النّاس المسرّة"[5].

كما حاول الرّوائي أن يُضمّن مع تدافع الشّخصيات الكثيرة المكوّنة لهذا العمل بعد المحطّات التّاريخية الّتي سبقت الفتح الإسلامي أهمّها الوجود الأوّل للعرب في القدس، وهنا ينقلنا إلى إحدى قاعات المقام البطريكي الّذي يستقبل بدويا بملابس العرب وهيئتهم، حيث أخبره هذا الأخير بأحوال العرب منذ وفاة الرّسول صلى الله عليه وسلّم حتى قدومهم إلى حصار بيت المقدس، وقد ركّز في حديثه على شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يكن هذا البدوي العربي واسمه "يوحنا" إلاّ من الغسانيين النّصارى، الّذين كانوا يعاونون الرّوم على المسلمين والفرس في حروبهم معا، وقد حاربوا في اليرموك في جيش الروم حربا شديدة[6]. والملاحظ أنّ فرح أنطون قد صاغ حوارات شخوصه انطلاقا ممّا قدّمه التّاريخ الإسلامي من أحداث، وبخاصة الفترة الّتي أعقبت ظهور الإسلام.

تتوالى الأحداث في الرّواية، تلك الّتي تدور حول علاقة حب بين إستر وإيليا في فضاء مكانيّ يحوم حول الأرض المقدّسة، وآخر زماني يُسجّل ما سبق الفتح من أحداث ومواقف، في قالب يجمع بين فنيّة السّرد، وسطوة التّاريخ بكافة تفاصيله، بل لا يتوانى أنطون في أن يقتبس وبشكل حرفيّ المادة التّاريخية من مضانها، والمثال على ذلك ما نُسجّله في الفصل الخامس عشر المعنون بـ:حصر بيت المقدس، حيث يقول السّارد في البداية:"فلنترك إيليا أسيرا في خيام العرب، ولنعد إلى المدينة وحاصريها لنرى ماذا حدث فيها"[7] ثم يقتبس هذا النصّ الحرفي للواقدي[8] ويُضمّنه في عمله الرّوائي:"أقام جند العرب على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزهم حرب، ولا ينظرون رسولا يأتي إليهم، ولا يكلّمهم أحد من أهلها. إلاّ أنّ أهل بيت المقدس حصنوا أسوارها بالمجانيق والطّوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخر"[9]. ويتكرّر هذا الاقتباس تقريبا في كلّ فصول الرّواية وهو ما يجعلنا نقرّ أنّ التّاريخ لم يكن أمرا ثانويا في هذا النصّ السّردي، حتى وإن ركّز في بعض جوانبه على اهتمامات اجتماعية وعاطفية أخرى.

توقّف فرح أنطون مطوّلا في روايته عند فتح عمر بن الخطاب لبيت المقدس، مصوّرا الظّروف الّتي صاحبت هذا الفتح، والّذي جاء نتيجة الصلح التّاريخي بين عمر رضي الله عنه، والبطريك "صفرونيوس"، حيث جاء الفصل التّاسع عشر مثقلا بالتّفاصيل الّتي ميّزت الاتّفاق على تسليم المدينة المقدّسة للمسلمين، والتّركيز على مكانة خليفة المسلمين وقيمته عند النّاس أجمعين على اختلاف ديانتهم، فها هو السارد يصوّر هذه اللّحظة الحاسمة قائلا:"ولما دنا عمر من البطريك مد البطريك إليه يده مصافحا فمدّ عمر يده إليه، وكان البطريك ينظر في وجه عمر، وعمر ينظر في وجه البطريك. فيظهر أنّ نفسيهما اتّفقتا لأوّل نظرة؛ لأنّ النّفوس الكبيرة تتعارف حين التقائها بالنّظر كما يتعارف باقي النّاس بالكلام. فابتدأ البطريك الحديث بقوله: لقد طلبت أن يكون الأمير الكريم متولي

عقد الصلح بيننا؛ لأنّني إذا وضعتُ هذه المدينة المقدّسة في عهده وذمّته خاصة أكون في أمن عليها وعلى أهلها من كلّ وجه، وأنا ألقي مفاتيحها إليه، فلما ترجم التّرجمان هذا الكلام لعمر أشار عمر برأسه موافقا على كلام البطريك، وأجاب: المسلم من حفظ العهد ورعى الودّ، ونحن جميعا عباد الله، فعلينا أن نكفل بعضنا بعضا"[10].

شكّلت رواية "أورشليم الجديدة" وثيقة تاريخية بامتياز، تلاقح فيها البعد الفني التّخييلي، مع عناصر أخرى تبدو متنافرة عليها، كالوثائق والمذكّرات، والوقائع التّاريخية، فتزاوج السّردي والتّاريخي أفرز إبداعا جيدا يجعل القارئ لا يكتفي بما يتيحه السّبك الفني من متعة وارتياح نفسي، بل يتجاوزه إلى بعد ابستمولوجي ينطلق من التّاريخ ويشابك مع معطيات معرفية أخرى، بل يصل حتى إلى نظرة استشرافية لما هو آت في المستقبل، وهو ما فاجأ به فرح أنطون في روايته هذه عندما قال:"سيأتي يوم يا أورشليم الجميلة يُنسى فيه هذا العمري فتشتدّ دواعي الجهل والبغض بين عناصرك، وحينئذ يختلّ ميزان العدل بين النّاس، ويفشو الاضطهاد، فيتّخذ الغرب هذا الأمر حجّة للزّحف على شرقك رغبة في استخلاصك. حينئذ تقوم حرب هائلة بين الشّرق والغرب، وهي الحروب الّتي سيسمونها حروبا صليبية، وستجني هذه الحروب يا أورشليم على الشّرق جناية هائلة: لأنّها ستكون من أسباب زوال مدينته العظمى، وانتقالها إلى الأمم الغربية، وزيادة الأحقاد بين العناصر البشرية زيادة تشوّه، وأسفاه، وجه الإنسانية"[11].

3- القدس ما قبل النّكبة في سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج:

تعدّ رواية سوناتا لأشباح القدس واحدة من الرّوايات الّتي جعلت القدس مدينة ينطلق منها التّخييل السّردي ليصنع عجبا في الإبداع، وقدسية للفضاء، حيث يتّخذ الرّوائي من "قدس الطّفولة المفقودة" فضاء أساسيا لروايته، بالإضافة إلى فضاء أمريكا الّذي تسترجع فيه البطلة مي الحسيني وهي على فراش المرض سيرتها الذّاتية الّتي تعود إلى سني طفولتها الأولى بالقدس، ومن ثمّ رحيلها عنها وهي ابنة ثماني سنوات، فتأتي على ذكر حارة المغاربة الّتي نشأت فيها، وعلى مدرستها، وعلى كنيسة القيامة الّتي صلّت فيها قبل رحيلها، وسوق القطانين، والمسجد الأقصى، وأسوار البلدة القديمة، وهذا الّذي جعلها رهينة لذكريات هذه المدينة المقدّسة، وأشباحها وألوانها الّتي فقدتها هناك، وتظلّ هذه الذّاكرة الّتي تتحوّل إلى أشباح تلحّ عليها باستمرار وتطاردها، بل إنّها تصبح جزءا من لوحاتها الفنيّة، وتظهر في خلفياتها وثناياها، ولونها المميّز الّذي تسميه فراشات القدس[12].

ويقف واسيني الأعرج عند عوالم متعدّدة تتقاسمها شخوص الرّواية في هذا الفضاء الفسيح، معدّدا في بعض الوقت الكثير من الأحداث التّاريخية الّتي مرّت بها مدينة السّلام، فنجده يسرد على ألسنة شخوصه أحداثا تعود بالقارئ إلى تاريخ القدس ما قبل النّكبة حتى تظن أنّك أمام مؤرّخ عظيم، من خلال توظيفه لمعلومات تاريخية، فها هو يعود إلى نهايات الدّولة العثمانية وتحالفها مع

الألمان سنتي 1915-1916، حيث يقول على لسان أم مي: "ففي سنة 1915 بدأ الأسطول البريطاني ضرب مدن السّاحل الفلسطيني وتمّ تهجير قسم كبير من النّاس إلى القرى والمدن الدّاخلية بما فيها القدس....في شتاء 1918 جاء إلى القدس عدد كبير من أهالي شرق الأردن، سلطيون وفحيصيون وغيرهم، وذلك عندما قام الأتراك والألمان بهجوم معاكس استردوا فيه السلط والفحيص، وانحدروا إلى أريحا، فهرب أهلها ليلا قبل وصول الألمان والأتراك. ودخلت القوات الألمانية إلى أريحا ، وهدّدت بالزّحف على القدس..."[13].

كما قدّمت الرّواية أحداثا تاريخية جرت في القدس، حيث وصّفت الكثير من التّفاصيل الّتي واكبت حادثة التّقسيم، حيث يقول على لسان البطلة: "منذ نصف قرن، استيقظت مدينة الله على جرح الموت. لأتذكّر جيدا يوم الثلاثاء 29 نوفمبر 1947. كانت العائلة كلّها مجتمعة في ذلك المساء حول الترانزستر، عندما انتفض جدي الّذي سمع الخبر قبلنا جميعا، على الرّغم من ثقل سماعه، كانت الصّدمة قويّة إذ ظلّت الأفواه مشدوهة: قولوا لي أني لم أسمع جيدا؟ بهيك بساطة قرّروا تقسيم فلسطين؟"[14].

ثم صّور الأعرج ما صاحب صدور قرار التّقسيم سنة 1947 من أحداث دامية بين العرب واليهود، إذ ترفض مي كسر زجاج أحد المحلات اليهودية، ليس خوفا من المصير، بل لأن صاحب المحل صديق خالها، كان يهوديا طبيبا، وتروي كذلك عن مشاركة والدها في اقتحام جريدة بالستاين بوست في شارع بن يهودا بالقدس، وهي الجريدة الّتي كانت تبثّ أخبارا عدائية ضدّ العرب وتصفهم بكلّ الصفات القبيحة، وجاءت فجيعة أخرى صباح 15 مارس 1948 لتختم الكلّ، عندما أعلن الإنجليز انتهاء الانتداب، بعد أن سلّموا كلّ شيء لجنود الهاجاناه والإرجون، والشيترون، في صفقة يعلمها القاصي والداني[15].

حاول واسيني الاعرج من خلال هذه الرّواية كذلك التّركيز على البعد التّاريخي في ربطه بين الأوصاف المكانية، والوقائع والأحداث التّاريخية، وخاصة تلك الّتي تعبّر عن الهويّة الوطنيّة، كالقدس، وحي المغاربة، والأندلس، وهو بهذه الطّريقة يكون قد ضمن العزف على وتر الإحساس والمشاعر؛ لأنّ القارئ العربي غالبا ما يميل للبحث عن انتمائه وهويّته، والبحث عن الحقائق المضمرة المتعلّقة بتاريخه[16]، فانظر إليه وهو يُعدّد أماكن تاريخية لا يمكن أن نذكر القدس إلاّ بالتجوّل فيها: رأيتها بعيني اللتين لن تمسسهما النّار كما تقول مي، وهي تعبر شوارع المدينة المندسّة خلف نثار الأجساد ورائحة البارود. تدور في الحارات زاوية زاوية، وبابا بابا: الحرم القدسي الشّريف، قبّة الصخر، المسجد الأقصى، باب الرّحمة، حارة الشّرفة وحارة اليهود في الجزء الجنوبي الشّرقي من المدينة وحارة المغاربة مع باب المغاربة، ثم حارة الأرمن وباب النبيّ داوود وجبل الزّيتون، وحارة النّصارى في الجزء الشّمالي الغربي من المدينة، وكنيسة القيامة والباب الجديد، وحارة السّعدية وحارة باب حطة"[17].

لقد شكّلت رواية سوناتا لأشباح القدس مرجعا مهمّا للدّارسين والأبحاث، من خلال ما حوته من محطّات تاريخية، شكّلت فضاء رئيسا للشّخوص، الّذين جعلوا من مدينة القدس الأيقونة الّتي تغطي حركاتهم وسكناتهم، والجوهرة الّتي تصطدم بها أحلامهم وآمالهم، ولئن أبدع واسيني الأعرج في تحريك أبطال روايته بطريقة فنيّة راقية في هذا الفضاء، فإنّ الأحداث والخطوب الّتي سجلها ببراعة في القدس كانت كفيلة بأن تجعل من هذا العمل رائدا، من خلال تصويره بصدق جميع المحطات التّاريخية، والتغيّرات الاجتماعية والثّقافية، الّتي مرت بها المدينة، حيث رسم من خلال أحداثه وشخصياته طبيعة المكان، وتفاصيله، وسلوكات ساكنيه، وأثر الفضاء في مواقفهم واختياراتهم.

4- بين نكسة حزيران وبداية الانتفاضة الأولى في صورة وأيقونة وعهد قديم، ومقهى الباشورة:

تتجلى القدس كفضاء مكاني هام، وكقضيّة تاريخية عند المبدعة الفلسطينية سحر خليفة في روايتها صورة وأيقونة وعهد قديم الّتي ألّفتها سنة 2002م، وهي رواية القدس العربيّة، تبدأ هذه الرّواية بعشق موؤود، وتنتهي إلى مدينة مقدّسة ضائعة، وهي تحكي عن روح فلسطين المتغيّرة، وعن شعب بسيط يصمد راضيا ومطمئنا، وتتأمّل ما تبقى من القدس، وترصد أرواحا ميّتة تتاجر بأحجار فلسطين، وبأخرى تُحوّل الحجر سلاحا فريدا[18]. ثم أنّها تحصر نفسها في إطار تاريخي على قدر عال من الأهميّة، وبين حدثين بارزين فارقين من تاريخ فلسطين، وهما نكسة حزيران عام 1967م، والانتفاضة الأولى المباركة عام 1987م.

ويحيلنا عنوان الرّواية إلى القول بأنّها نص قائم على تركيب مستويات السّرد بشكل تاريخي وجمالي، تخوض عبره سحر خليفة في الكشف عن شخوص وأمكنة، تتداخل لتحكي قصة النضال الفلسطيني عبر عقدين من الزّمن، وتروي سيرة مدينة القدس عبر بطلها الرئيس إبراهيم وقصة حبه من فتاة مسيحية تدعي مريم، فالحدث يبدأ مع استرجاع إبراهيم لذكريات الماضي، ودمج ذلك مع حاضره[19]. أما أحداثها فهي أحداث مترابطة ومتسلسلة، تأتي متتابعة زمنياً وتنمو وتتطور وفق منطق تاريخي صادق؛ بدأتها الكاتبة (بصورة) أرّخت فيها لحال القدس قبل عام 1967م ثم جاءت الحكاية الثانية بعنوان (أيقونة)، سجلت خلالها حال القدس بعد عام 1967م حتى السنين الأولى قبل اندلاع الانتفاضة الأولى، أما الوحدة الثالثة فكانت بعنوان (عهد قديم) وفيها تؤرخ الكاتبة لحال القدس إلى بداية الانتفاضة الأولى[20].

إنّ سحر خليفة وهي تسجل الأحداث التّاريخية لهذه الرّواية لم تجد بدّا من الالتزام بالموضوعية، حيث حرصت على التوسّل بالحقيقة دون تهميش أو تزوير، ومساءلة لما جرى دون حذف أو إضافة، وهو تأكيد للعمليّة التّأريخية، بتفاصيلها وجزئياتها الدّقيقة، فكلّ إبداع يختار القدس موضوعا له لا يمكنه أن يغفل البعد التّاريخي، رغم ما يتطلّبه من جوانب فنيّة، وقيم جمالية تسعى إلى التّأثير في المتلقي بخلق عوالم متخيّلة جديدة.

وإذا كانت رواية سحر خليفة قد أعطت للقارئ صورة لافتة عن مدينة السّلام وهي تستقبل حدثا فارقا من قبيل نكسة حزيران، فإنّ المجموعة القصصية "مقهى الباشورة" لخليل السواحري الّتي صدرت عام 1969م قد قدّمت تصوّرا للمدينة، وما صارت إليه أحوال النّاس بعد هذه النّكسة، ناهيك عن التطوّرات الّتي لحقت بهذا الفضاء المكاني، فها هو يصف مقهى الباشورة الشّهيرة، والّتي تتربّع على إحدى حارات القدس القديمة قائلا: "إلاّ أنّ حرب حزيران جاءت فيما يبدو لتعيد مياه المقهى إلى مجاريها، فقد أصبحت حارة اليهود بين يوم وليلة مزارا حاشدا، وعادت الأفواج تملأ الشّوارع بعضهم ينحدر شرقا إلى حائط المبكى، وبعضهم يتوجّه جنوبا إلى حارة اليهود، واتّخذ المقهى من جديد موقعه الاستراتيجي السّابق على تقاطع الأسواق"[21].

وكان قبل ذلك قد وقف على بعض أحياء مدينة القدس في الفترة الّتي أعقبت النّكبة، حيث يقول:"فبعد أن سقطت حارة اليهود بيد العرب في حرب عام ثمانية وأربعين تحوّلت سوق المقهى بكاملها إلى باشورة، وانقطعت أفواج الذّاهبين من وإلى حارة اليّهود، وقد مرّت فترة طويلة والحارة شبه أنقاض، حتى عادت إليها الحياة مرّة أخرى عندما استوطنها اللاجئون وجعلوا اسمها حارة الشّرف، ومع ذلك فقد ظلّت أحوال المقهى شبيهة بأحوال دكاكين الخردوات، تزدهر يوما وتنتكس في أغلب الأيام"[22].

شكّلت نكسة حزيران 1967م، بما سبقها من أحداث، وما تلتها من تغيّرات، المادة الخام الّتي استثمرها المبدعون العرب في المساهمة في كتابة التّاريخ، والوقوف على أهميّة هذه المدينة، وأثر الأحداث المصاحبة للنّكسة في التحوّلات الّتي طرأت عليها، في قالب فنيّ يغوص فيه خيال المبدع، ويُحافظ في الوقت ذاته على حقائق ومعطيات شاهدة على ماعانته هذه المدينة المقدّسة، وما لاقاه المقدسيون في سبيل الذّوذ عنها من شتى صنوف العذاب والهوان والانكسار.

5. خاتمة: إنّ أيّ دراسة تشغل موضوع القدس لا تستطيع الإجابة عن كافة التّساؤلات الّتي تُحيط بهذا الفضاء المقدّس، والّذي تتجاذبه عوالم مختلفة تأسر في كلّ لحظة مخيال الأديب، وتمنحه الصّور الممتعة الّتي تُجوّد به خطابه الأدبي، وقد خلص بحثنا هذا، المتجوّل في بساتين فطاحلة الرّواية العربيّة الحديثة إلى النتائج الآتية:

1- لعب السّرد دورا بارزا في تصوير مدينة القدس، وتمثّل المراحل الّتي قطعتها المدينة تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، حيث نهض المبدعون بالتّأكيد على قدسيّة الفضاء، ومدى تأثيره في المبدع والمتلّقي على حدّ سواء، وضرورة الدّفاع عنه فنيّا وجماليا.

2- لقد لعب تاريخ القدس دورا مهمّا في إذكاء مخيال الرّوائي، حيث اعتنت النّصوص السّردية العربية الحديثة بالأحداث التّاريخية الّتي ميّزت مدينة القدس، ومن هنا فقد اجتهد السّارد في توظيف

الكثير من المشاهد والوقائع الّتي عاشتها المدينة المقدّسة في خطاباته الرّوائية، حيث جعل منها وثائق تاريخية جديرة بالاعتناء بها.

3- تعدّ رواية "أورشليم الجديدة" لفرح أنطون وثيقة تاريخية بامتياز، حيث أراد من خلالها الرّوائي تسليط الضّوء على حدث هام عاشته المدينة في فترة الخليفة عمر بن الخطاب وهو فتح القدس، وقد امتزجت الرّواية بالمطارحات الدينية والفلسفية، وتصوير قصّة حب جمعت بين اليهودية "إيستر"، والمسيحي "إيليا"، في قالب إبداعي شائق.

4- أبدع الرّوائي واسيني الأعرج في وصف الكثير من الصّور الّتي تميّز بها ساكنوا مدينة السّلام في روايته سوناتا لأشباح القدس، حيث ذكّر على لسان بطلته القابعة في مستشفى نيويورك ما عاناه شخوص نصّه السّردي في الفترة الّتي سبقت النّكبة، وما بعدها، من خلال تركيزه على البعد التّاريخي في ربطه بين الأوصاف المكانية، والوقائع والأحداث التّاريخية، وخاصة تلك الّتي تعبّر عن الهويّة الوطنيّة.

5-كما شكّلت نكسة حزيران والانتفاضة الأولى مادة رئيسة في نصي سحر خليفة، وخليل السواحري، حيث قدمت رواية صورة وأيقونة وعهد قديم، وقصّة مقهى الباشورة العديد من التّفاصيل الّتي رافقت هذين الحدثين الهامين، واللّتان كان لهما عميق الأثر في الشّخوص المحرّكة لأحداث النّصين.

5. هوامش البحث :

[1] - محمد القاضي، الرّواية والتّاريخ: دراسات في تخييل المرجعي، دار المعرفية للنّشر، تونس، د.ط، 2008، ص19.

[2] - نزيه أبو نضال، المكان في رواية القدس، حضور في الغياب، مجلة أفكار، العدد 348، 2018، ص140.

[3] - ينظر، حسن المناصرة، فرح أنطون روائيا ومسرحا، دار كرمل للنّشر، عمان، ط1، 1994، ص155.

[4] - ينظر، هداية الرّزوق، صورة القدس في الرّواية العربية، مجلّة الرأي، 26/08/2016.

[55] - فرح أنطون، أورشليم الجديدة، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، 2013، ص11.

[6] - ينظر، حسن المناصرة، فرح أنطون روائيا ومسرحا ، ص157-158.

[7] - فرح أنطون، أورشليم الجديدة، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، ص129.

[8] - يعتمد الرّوائي على ما كتبه الواقدي عن فتح بيت المقدس، رغم تشكيكيه في الكثير من رواياته، حيث يعتبر تاريخه يكاد يكون في أكثر أقسامه قصة عنترية، فالتّناقض في الرّوايات والتّفاصيل ظاهر بينه وبين باقي المؤرّخين، وفيما بين هؤلاء أيضا، وإنّما فضّله عليهم لأنّه أكثر تفصيلا.

[9] - أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، فتوح الشّام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص211.

[10] - فرح أنطون، أورشليم الجديدة، ص161.

[11] - المرجع نفسه، ص163.

[12] - ينظر، محمد عبد الحفيظ محمد الطحل، رواية القدس في الأدب العربي في القرن الحادي والعشرين، رسالة ماجستير، جامعة النّجاح الوطنية، فلسطين، 2013، ص97.

[13] - واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، موفم للنّشر، الجزائر، د.ط، 2015، ص169-170.

[14]- المرجع نفسه، ص138-139.

[15]- المرجع نفسه، ص 139.

[16]- ينظر، وهيبة عجيري، تضافر الجانب الفنيّ والتّاريخي في روايات واسيني الأعرج، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص641.

[17]- واسيني الأعرج، سوناتا لأشباح القدس، ص12-13.

[18]- ينظر، سعيد محمد الفيومي، "تجلّيات القدس في الرّواية الفلسطينية"، مؤسّسة القدس للثّقافة والتّراث، 2/4/2011، شوهد في11/4/2019، في: http://alqudslana.com/index.php?action=article&id=1127

[19]- ينظر، لنا عبد الرحمن، "سحر خليفة في صورة وأيقونة وعهد قديم"، الموقع الشخصي للكاتبة لنا عبد الرحمن، 30/3/2013، شوهد في 12/4/2019، في:http://www.lanaabd.com/articles.php?cat=25&id=201

[20]- ينظر، سعيد محمد الفيومي، "تجلّيات القدس في الرّواية الفلسطينية".

[21]- خليل السواحري، مقهى الباشورة، دار الكرمل للنّشر، عمان، ط3، 1989، ص36.

[22]- المرجع نفسه، ص35